نحو تربية جنسية للأطفال

السيد مصطفي عشوي

مقدمة :

هل توفر عائلاتنا للأطفال تربية جنسية صحية في مختلف مراحل العمر ؟ وهل تقوم مؤسستنا التربوية بهذا الدور ؟ ماهي عواقب عدم القيام بهذا الدور ؟ هذه بعض الأسئلة التي نطرحها تحت هذا العنوان لنبين أن التربية الجنسية بمفهومها الشامل تكاد تكون منعدمة في العائلات الجزائرية ، وذلك رغم الأسئلة المتكررة التي يطرحها الأطفال على أوليائهم حول اسباب اختلاف الاعضاء الجنسية بين الذكور والاناث وحول ظهور اللحية على وجه «بابا» وليس على وجه «ماما» ، ولماذا ختان الذكور دون الاناث ولماذا يبول الولد واقفا والبنت قاعدة ومن أين يأتي الاطفال وغير ذلك من الأسئلة التي تتعقد أكثر مع كبر الطفل واتساع درجة فضوله واحتكاكه بالآخرين. وغالبا ما يتحاشى بعض الاولياء الخوض في هذه المواضيع مع أطفالهم في حين يعمد الآخرون الى تعنيف الاطفال لطرحهم هذه الأسئلة طالبين منهم أن يستحوا لأن هذه المواضيع (عيب) في حين يكتفى البعض بالقول (عند ما تكبر تعرف).

وكما تبين الملاحظات وبعض الدراسات فإن أحسن مرحلة لتعليم الاطفال بعض الحقائق البسيطة المتصلة بالحياة الجنسية هي لمرحلة الطفولة ما قبل المدرسة حيث يمكن للأولياء التحدث مع أطفالهم دون حرج اذ أن كثيرا من الكلمات والمصطلحات الجنسية لا تحمل أية (شحنة) سلبية عند الأطفال ، ثم أن تعليم الأطفال في البيت هذه (الأمور) أحسن من تركهم دون أية معلومات في هذا المجال مما يجعلهم يبحثون عن الإجابة عن أسئلتهم عند أطراف أخرى ، وغالبا ماتكون هذه (الأطراف) زملاء الدراسة أو أطفال الحي الذين هم أكبر سنا من الطفل السائل ،

وتكون المعلومات المقدمة – في هذه الحالة – إما خاطئة تماما أو مشوهة أو قائمة على المبالغة والتهويل ، كما قد تؤدي مخالطة قرناء السوء الى بعض الممارسات الجنسية الشاذة كاللواط والسحاق وغير ذلك.

التربية الجنسية في الغرب :

إن اهمال التربية الجنسية الشاملة في المدارس والمعاهد تكاد تشترك فيها الدول «المتقدمة» «والدول» «المتخلفة» ، ففي الولايات المتحدة مثلا هناك ست ولايات فقط من مجموع 50 ولاية هي التي يسمح فيها بتعليم بعض جوانب التربية الجنسية للاطفال في المدارس العمومية (1). ولعل السويد هو من بين البلدان القليلة التي تنتشر فيها برامج التربية الجنسية في المدارس. والملاحظ عندما تنعدم هذه التربية في العائلة أو المؤسسات التربوية هو لجوء الأطفال الى مصادر أخرى للحصول على المعلومات عن هذا الموضوع الحساس كما أسلفنا. والغريب أننا نجد حتى في بلد مثل الولايات المتحدة الامريكية – حيث تسود اللبيرالية في مختلف المجالات وحيث ينتشر التعليم على نطاق واسع – أن المصدر الأساسي للحصول على المعلومات حول المواضيع الجنسية هو (الأصدقاء) في المرتبة الاولى بنسبة 54٪ عند الذكور ونسبة 46٪ عند الاناث ، وتلي ذلك القراءة (المطالعة) كمصدر في الدرجة الثانية بنسبة 20٪ عند الذكور 22٪ عند الاناث ، ثم الام كمصدر ثالث بنسبة 3٪ للذكور و16٪ للاناث ثم الاب كمصدر رابع بنسبة 5٪ للاناث ثم اشخاص كبار السن خارج العائلية بنسبة 6٪ للذكور و5٪ للاناث ثم الاخوة والأخوات بنسبة 4٪ للذكور و6٪ للاناث ثم آخرون بنسبة 7٪ للذكور و7٪ للاناث. (2).

عواقب اهمال التربية الجنسية :

لايخفى أن لاهمال هذه التربية عواقب خطيرة تنجم عن جهل تشريح الأجهزة التناسلية والوظائف الحيوية التي تؤديها هذه الأجهزة وتتمثل هذه العواقب في نشؤة

اضطربات صحية وسلوكية عند الأطفال والمراهقين. ومن بين هذه المشكلات انتشار عادات سلوكية سيئة عند الأطفال ذكورا واناثا مثل (العادة السرية) التي تنتشر بين الذكور والاناث وخاصة في سن المراهقة ، فقد وجد في دراسة أمريكية مثلا أن كل ذكور أفراد العينةالمدروسة وأن ثلثي اناث العينة قد مارسوا الاثارة الجنسية الذاتية في وقت من الأوقات (2). ومما ينجم عن ممارسة هذه العادة الاحساس بالذنب والقلق وخاصة عند مرهقي الاحساس والمتدينين ، ومن عواقب اهمال هذه التربية الممارسة الجنسية الخاطئة بين الأطفال والمراهقين مما يؤدي الى فرض غشاء البكارة والحمل في بعض الحالات ، الشيء الذي يعرض حياة المراهقات لخطر التشرد هروبا من عقاب الأهل ، والانقطاع عن الدراسة ، ولخطر الاجهاض على يد نساء غير محترفات أو عن طريق تناول أدوية لاسقاط الجنين وغير ذلك من السلوكات التي قد تؤدي الى موت الفتاة. واذا استطاعت الفتاة الحفاظ على جنينها حتى تضعه فاما أن تقتله انتقاما من نفسها ومن الرجل الذي خانها وأما أن تتركه لقيطا دون أم وأب وهذا ما يعرضها للشعور بالذنب والاحساسبالحزن والكآبة.

ولو حكمنا العقل في هذا الموضوع لوجدنا أن التربية الجنسية المنهجية في العائلة والمدرسة والمسجد وبواسطة وسائل الاعلام المختلفة – التي تراعي نمو الطفل وسنه وجنسه – هي أحسن وسيلة لتفادي كثير من المشكلات السلوكية الجسمية والنفسية وكثير من الانحرافات الخلقية والجنسية التي تربط باهمال هذه التربية. ولو عدنا الى النصوص في القرآن والسنة لوجدنا ارشادات هامة في هذا المجال يمكن للتربويين والسيكولوجيين استنباط قواعد مبسطة منها لتثقيف العائلات والأطفال تثقيفا جنسيا قائما على برامج تربوية أخلاقية وعلمية توجه النشء الى اكتساب معروفة كافية في هذا الميدان خاصة وأن وسائل الايضاح متيسرة ودروس البيولوجيا تشكل محوارا اساسيا من محاور الدراسة في المدارس والثانويات

والجامعات. واذا كان التزمت والتعصب الديني هو الذي يمنع البعض من التطرق الى هذا الموضوع ومعالجته فان لنا في رسول الله ﷺأسوة حسنة حيث كان يعلم صحابته آداب الجماع والمداعبة ، وينصح في التفريق بين الأطفال في المضاجع ، وأن القرآن يعلم المسلمين تفادي الجماع أثناء الحيض وان كان جمهور العلماء يجيزون مداعبة المرأة وملاعبتها أثناء الحيض مع تجنب الايلاج (الادخال). ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه (باب الحيض) : ... عن عائشة قالت : «كنت أغسل أنا والنبي ﷺمن إناء واحد كلانا جنب وكان يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض وكان يخرج رأسه الي وهو معتكف فأغسله وأنا حائض» ومن ذلك ما رواه في نفس الباب الشيباني عن عبد الله بن شداد قال سمعت ميمونة كان رسول الله ﷺإذا أراد أن يباشر أمرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض. ومن ذلك ما جاءك في نفس الباب عن كيفية تعليم النبي ﷺلصحابته من الرجال والنساء هذه الامور ، فقد جاء عن عائشة أن أمرأة سألت النبي ﷺعن غسلها من المحيض فأمرها كيف تغتسل. قال خذي فرصة من مسك فتطهري بها ، قالت : كيف أتطهر ، تطهري بها : قالت : كيف قال : سبحان الله تطهري فاجتذبتها الي فقلت تتبعي بها أثر الدم. ومن ذلك ما رواه البخاري أيضا في كتاب (في كتاب النكاح) حيث خصص بابا سماه باب (نكاح الابكار) وبابا سماه (الثيبات) حيث روي فيه حديثا عن جابر بن عبد الله قال لنا مع ﷺ من غزوة فتعجلت على بعير لي قطوف فلحقني راكب من خلفي فنخس بعيري بعنزة كانت معه فانطلق بعيري كأجودة ما أنت راء من الابل فاذا النبي ﷺ فقال : ما يعجلك ؟ قلت كنت حديث عهد بعرس قال بكرا أم ثيبا قلت : ثيب قال: فهل جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ قال فلما ذهبنا لندخل قال أمهلوا حتى تدخلوا ليلا أي عشاء لكي تمتشط الشعثة تستحد المغيبة. ويعني ذلك أن تعطي الفرصة للزوجة لتحضير وتجميل نفسها استعدادا لملاقاة الزوج وجاء في القرآن الكريم : «نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم.

والغريب أن بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة (المكذوبة عن رسول الله) هي التي تلقى الرواج في هذا المجال ، وذلك مثل الحديث الذي جاء في اللاليء المصنوعة في الاحاديث الموضوعة» (3) (اذا جامع أحدكم زوجته أو جاريته فلا ينظر الى فرجها فإن ذلك يورث العمى) (والرواية الاخرى لنفس الحديث في المرجع نفسه هي : (إذا جامع أحدكم فلا ينظر الى الفرج فانه يورث العمي ويكثر الكلام فانه يورث الخرس) ولعل التعتيم على موضوع الحياة الجنسية هو الذي يؤدي الى انتشار مثل هذه الاحاديث والى انتشار بعض الخرافات المتعلقة بالليلة «الدخلة» (الدخول على العروس)وما يصاحب ذلك من خوف وارهاب للجانبين ، واحتمال فشل الطرفين في اظهار «الرجولة» «والنضج» ، واحتمال التعرض لمشكلات «الربط» وهي مشكلة تنشأ أساسا عن عوامل نفسية تعود جذورها الى مراحل الطفولة الاولى أو الى خبرات سيئة مر بها الفرد ذات علاقة بأعضائه الجنسية خاصة والى الايحاءات والحكايات المتداولة بين المراهقين والشباب حول فلان وفلانة.

اذا كانت أهداف التربية الجنسية الشاملة قد اتضحت بما فيه الكفاية سواء من الناحية النفسية والجسمية ومن ناحية العلاقات الشخصية والاجتماعية ، فلا ينبغي ترك الاطفال والشباب بدون ترشيد في هذا الموضوع الهام بحجة أن انتشار التعليم يمكنهم من الاطلاع على ما يريدونه في هذا المجال الهام من الكتب والمجلات ، ذلك لأن الكتب والمجلات المتوفرة لا تقدم اجابات كافية ومدروسة لمجمل المشكلات والقضايا المرتبطة بالحياة الجنسية في مختلف مراحل العمر ، كما أن بعض المجلات وحتى بعض الكتب تقدم معلومات خاطئة عن بعض القضايا المرتبطة بالجنس ، وذلك كادعاء بعض المصادر أن ممارسة العادة السرية تؤدي الى ضعف البصر. وعلاوة على هذا ، فان القدرة على المطالعة ليست ضمانا كافيا لتحصيل المعارف الضرورية في هذا الميدان. لقد وجد لحرش (4) في بحث ميداني له في كل من الجزائر والعراق حول مشكلات المراهقين في البلدين أن حوالي 9،77٪ من

افراد العينة المدروسة (600 تلميذ ثانوي) في الجزائر ، ونسبة 10،59٪ من أفراد العينة في العراق (نفس حجم العينة) لايعرفون المصدر الذي ينبغي استقاء المعلومات منه عن الجنس . واذا كانت هذه هي النسبة – وان كانت ليست كبيرة – عند تلاميذ الثانويات فما هي النسبة التي يمكن أن تكون عند الأطفال في سن البلوغ الذي يكون عادة قبل الدخول الى المرحلة الثانوية؟ وما هي النسبة عند المراهقين الذين لم يتمكنوا من مواصلة الدراسة لسبب من الاسباب؟ الأمر في حاجة الى بحوث ميدانية للحصول على اجابات دقيقة عن هاذين السؤالين وما يرتبط بهما للوصول الى صياغة منهجية لبلورة برنامج تربوي عند الجنسين.

نحو منهجية لصياغة البرنامج التربوي :

المقصود بالبرنامج التربوي في هذا المقام هو البرنامج الخاص بتربية الاطفال والمراهقين تربية جنسية هادفة ، وعليه ، فان وضع هذا البرنامج يتطلب شروطا علمية ومنهجية من أهمها :

1 – ضرورة اسناد هذه المهمة لعلماء التربية والسيكولوجيا وللأطباء المتخصصين في طب الأطفال ، وذلك ضمن فرقة بحث علمي متعددة الأختصاصات.

2 – مراعاة نمو الأطفال وفق مراحل محددة اجرائيا تراعي النضج الجسمي والنمو العقلي والوجداني من الولادة الى نهاية المراهقة.

3 – القيام بدراسة استطلاعية لجميع أسئلة الاطفال والشباب حول الأمور الجنسية في مختلف مراحل العمر ، وذلك يقصد تقسيم هذه الأسئلة والاهتمامات وتبويبها وتحويلها الى استبيان قائم على أسئلة واضحة ومحددة بحيث يصبح هذا الاستبيان وسيلة لتشخيص مدى اطلاع الشباب والأطفال على الأمور الجنسية – كل حسب فئة عمره – من جهة ، ولتحديد أحسن السبل والوسائل لتثقيف الأطفال والمراهقين ثقافة جنسية هادفة.

4 – الاعتماد على البيانات المحصلة ميدانيا بواسطة دراسة مسحية لتصميم برامج تربوية تراعي النمو المتعدد الجوانب للطفل ، وتراعي الذوق والأخلاق والمقاييس العلمية بحيث تتكامل هذه الجوانب مع التربية العائلية الشاملة من جهة ومع التربية الشاملة التي يتلقاها الاطفال في المؤسسات التعليمية وفي المحيط بصفة عامة.

– تجنيد وسائل الاعلام الجماهيري وخاصة الوسائل السمعية – البصرية لتوعية الآباء بأخطار إهمال التربية الجنسية وعواقب ذلك من الناحية الصحية : النفسية والجسمية، ومن الناحية الاجتماعية. وبالاضافة الى تبيان عواقب اهمال هذه التربية ينبغي التركيز على تقديم الطرق والوسائل التي تنشر الوعي لتفادي هذه العواقب من جهة ولتحقيق البناء المتوازن للشخصية من جهة أخري.

باختصار ، فان الاعتماد على المنهج العلمي لصياغة برنامج تربوي تثقيفي حول الحياة الجنسية هو السبيل الصحيح لتعلم الاطفال والشباب السلوك الجنسي السليم في مختلف مراحل العمر ، وتزويدهم بالاجابات الصحيحة عن الأسئلة المطروحة بالحاح حول كثير من القضايا المرتبطة بالجنس ويوجههم نحو النشاطات الرياضية والفنية وغيرها التي تصعد «الطاقة الجنسية» أو تحولها الى مجالات الابداع والاختراع، سواء أكان ذلك بالتربية الروحية أو التربية الرياضية والموسيقية (الفنية بصفة عامة) أو بغيرها من النشاطات والهوايات الشيء الذي يحمي المراهقين والمراهقات من الوقوع في تصورات خاطئة عن الجنس ، أو يدفع بهم الى ممارسات جنسية شاذة أو ذات عواقب وخيمة على حياة الفتاة كالحمل خارج الاطار الشرعي ، والشذوذ الجنسي وغير ذلك من الممارسات المنحرفة الناجمة عن أخطاء تربوية غالبا ما يتعرض لها الأطفال ضمن الاطار الاسري في المراحل الاولى من العمر ، أو عند تعلم خاطىء من مجلات وأفلام خليعة أو من قرناء السوء.

ورغم حساسية هذا الموضوع ، فاننا ندعو الباحثين التربويين والنفسيين لدراسته دراسة علمية من مختلف الجوانب حتى لا يترك هذا الجانب الهام من الحياة البشرية ميدانا للتأويلات الخاطئة والتفسيرات الضالة الهدامة والممارسات الخرافية والمنحرفة والشاذة...

المصادر

المراجع الاجنبية :

(1) ZELLA LURIA, MITCHEL D. ROSE psychology of human sexuality. John Wiley & Sons. NEW YORK : 1979.P.457

(2) HUNT (1974) IN RATHUS A.S., NEVIDS J. Adjustment and Growth : the challenges of life. Holt, Rinehart and winston NEW YORK. 1980.

المراجع العربية :

(3) الامام جلال الدين الرحمن السيوطي (توفي سنة 911 هـ) : اللالىء المصنوعة في الاحاديث الموضوعة. ط 3. المجلد 2 (باب النكاح).
دار المعرفة : بيروت (1981). ص : 170.

(4) لحرش محمد : دراسة مقارنة لمشكلات المراهقين في الجزائر والعراق : رسالة ماجستير نوقشت بكلية التربية ، جامعة بغداد (1982) – رسالة غير منشورة – ص : 150.